النزعة الإنسانية في الشريعة الإسلامية هي المنطلق لحقوق الإنسان

مقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وفضَّله على معظم المخلوقات ، وجعله خليفة في الأرض ، وسيداً فيها .

والصلاة والسلام على رسول الإنسانية محمد بن عبد الله ؛ الذي أرسله الله رحمة للعالمين من الإنس والجن ، واصطفاه مع سائر الرسل ، وجعله أكمل الناس أجمعين ، ليكون النموذج الأمثل ، والإنسان الكامل ، والقدوة لبني البشر ، والأسوة للمسلمين ، وبعد :

فهذا بحث يبين النزعة الإنسانية في التشريع الإسلامي ، والتي تعتبر المنطلق الحقيقي والواقعي ، والسند الشرعي ، لحقوق الإنسان ، ونعرضه في تمهيد وعدة فقرات تكشف الأحكام العملية الشرعية للممارسة لحقوق الإنسان فعلاً ، وليس شعاراً للمتاجرة ، كما نراه اليوم .

* * *

تمهيد

الإنسان محور الرسالة السماوية

لقد كرم الله **الإنسان** ، وخلقه في أحسن صورة ، ومنحه العقل والإدراك والإرادة ، وفضله على كثير مما خلق ، وسخر له ما في الكون ، ثم رعاه بابتعاث الرسل والأنبياء لهدايته وإرشاده ، وأنزل له الصحف والكتب ليسير على المنهج القويم ، والصراط المستقيم ، قال تعالى : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1] [غافر : ٦٤] .

وإن الإنسان هو الهدف الأول والرئيس للرسالات ، وإرسال الرسل والأنبياء ، وإنزال الكتب والشرائع ، وهو محور التشريع والأحكام ، وهو المقصود أصلاً بالخطاب القرآني والرعاية النبوية الشريفة ، وفي جميع الاجتهادات الفقهية ، وتصرفات الخلفاء والحكام والولاة ، وبالتالي فلا عبرة شرعاً وعقلاً واجتهاداً بأي حكم ، أو مبدأ ، أو قاعدة ، أو تشريع ، يتعارض مع مصلحة الإنسان ، أو يؤثر في مكانته وكيانه ،

---

(١) قال ابن العربي رحمه الله تعالى : « ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان ، فإن الله خلقه حياً ، عالماً ، قادراً ، ومريداً ، متكلماً ، سميعاً ، بصيراً ، مدبراً ، حليماً . . . » ثم قال : « هذا يدلك على أن الإنسان أحسن خلق الله باطناً ، وهو أحسن خلق الله ظاهراً » (تفسير ابن العربي : ٤/ ١٩٤١) .

ووجوده وحقوقه ، واعتباره وكيانه ، وحاضره ومستقبله .

ومن هنا تتجلَّى النزعة الإنسانية المطلقة للتشريع الإسلامي ، وأن أهم وصف ، وأعلى نعت للإسلام وأحكامه وشرعه : أنه إنساني ، بكل ما للكلمة من معنى .

فالإنسان هو الغاية المنشودة لكل ما يجري على الكوكب الأرضي ، والإنسان هو غاية النظم والتشريعات ، وهو محط الأنظار في مختلف العلوم ، ولأجل الإنسان تُشرع الأحكام ، ويجهد الناس في الإنتاج والعمل والاكتشافات والاختراعات .

والإنسان هو محور الرسالات السماوية ؛ لأن الإنسان هو المقصود غاية وهدفاً ، فمن أجله وجد كل ذلك .

فالله تعالى خلق آدم وجعله خليفة في الأرض مع ذريته ، ولم يخلقه عبثاً ، ولم يتركه سُدى ، وإنما تكفل بهدايته وإرشاده ، وأخذ بيده إلى الطريق الأقوم ، والمنهج الأمثل ، وطمأنه منذ استقراره في الأرض أنه لن يدعه طعاماً سائغاً لوساوس الشيطان ، ولن يتركه نهباً للوهم والخبط والضلال ، ولم يُسلمهُ للجهالة والحيرة والضياع ، وإنما أكرمه بالهداية والرشاد للتي هي أقوم ، فقال تعالى : ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٣٨] .

هكذا توالت الرسل ، وتتابع الأنبياء ، وأُنزلت الكتب ، وكلها تدور على محور واحد ، وهو الإنسان بما يحقق له السعادة في الدنيا والآخرة ، وجاءت الشرائع لتأمين مصالح الناس .

يقول أحد الباحثين : « لعل أروع ما في الأديان ، وما يشدني أنا شخصياً ، هو أنها تُعظِّم من شأن الإنسان ، ولا تتركه في هذا الوجود نهباً للتشتت والضياع وفقدان الأمل . . . ، ويصل **الإسلام إلى الذروة** في

إظهار هذه الرابطة بين القوة الخالقة المدبرة لهذا الكون ، وبين الإنسان ، فليس الإنسان في حقيقته إلا مظهر هذه القوة الإلـٰهية ، وهذا الوجود ، ودليل مشيئتها على الأرض »[١] .

ويقول العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى : « إنَّ الشريعة مبناها وأساسها على **الحكم ومصالح العباد** في المعاش والمعاد ، وهي عدلٌ كلُّها ، ورحمة كلُّها ، فكلُّ مسألة خرجت عن العدل إلى الجور ، وعن الرحمة إلى ضدها ، وعن المصلحة إلى المفسدة ، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة ، وإن أُدخلت فيها بالتأويل ، فالشريعة عدل الله بين عباده ، ورحمته بين خلقه ، وظله في أرضه ، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله ﷺ أتم دلالة وأصدقها »[٢] .

وإن **الاستقراء لأحكام الإسلام** ، والتتبع لنصوصه ، يؤكدان ذلك ، وأن الهدف منها الإنسان ، ومن أجل الإنسان ، ولمصلحة الإنسان ، حتى إن ما يتوهمه البعض ـ مجازاً ـ أنه حق لله تعالى ، أو للأمة والمجتمع ، أو للنظام العام ، فإنه للإنسان حصراً ، وحتى العقيدة والإيمان والعبادات التي يتوجَّه بها الإنسان إلى الله الخالق البارئ ، فإنها حتماً لمصلحة الإنسان ، وتعود إليه حصراً ، فالله تعالى لا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية .

وهذا كلام عام ، ونريد تأكيده تفصيلاً مع الأدلة ، ليعرف القارئ عظمة الإسلام ، ورسالته ، وهدفه وغايته ، ويطمئن المؤمن إلى دينه وعقيدته وتشريعه ، ويزداد إيماناً وتسليماً وشكراً لله تعالىٰ على فضله . وذلك في الفقرات التالية .

* * *

(١) الأستاذ أحمد حسين ، من قضايا الرأي في الإسلام ، ص١٠-١١ .

(٢) إعلام الموقعين : ٣/ ١٤ .